# اللغة العربية وأبناؤها:
# الذاكرة الأدبية وإعادة تكوين الشخصية العربية المعاصرة

**د. بسمة أحمد صدقي الدجاني**
**أستاذ مساعد في الجامعة الأردنية / مركز اللغات**
bdajani@hotmail.com

ملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة مدى أهمية الذاكرة الأدبية في حياة المجتمعات لما تمثله من عامل أساسي في تحديد الهوية والانتماء لدى الأفراد، وفي غرس القيم في نفوسهم، وفي تحقيق التواصل بينهم وبين أسلافهم من أبناء نفس الحضارة من جهة وبين أبناء الثقافات الأخرى من جهة ثانية، وفي تفاعلهم مع آداب المجتمعات الأخرى.

سيعرض البحث لكيفية عناية أجدادنا بذاكرتهم الأدبية في مراحل تاريخنا المتعاقبة، وتأليفهم كتباً كثيرة في حفظ هذه الذاكرة مثل الأغاني للأصفهاني، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والكشكول للعاملي ويتيمة الدهر للثعالبي. كما سيتناول ما شهدته الذاكرة الأدبية من تطور عبر العصور حيث سجلت صفحات التاريخ حركة التأليف عند العرب بدءاً من العصر الجاهلي فظهور الإسلام، والانتقال من قرن إلى قرن، مروراً بحقبة الازدهار الأندلسية، ووصولاً إلى العهد العثماني والتحول الكبير الذي طرأ بعده وخلال القرن العشرين.

وسيأخذ البحث مجراه في نقد ذاكرتنا الأدبية في القرن الحادي والعشرين كمعيار لنقد واقعنا الأدبي الراهن وتحليل نظرة أبناء العربية إلى لغتهم الأم.

## The Arabic Language and its Sons:
## The Literary Memory and the Remolding of the Contemporary Arab Personality

**This paper attempts to study the importance of the literary memory in the lives of societies. The literary memory represents a primary factor in distinguishing the identity and the belonging of individuals. It has a role in implanting values in their characters, and bridging the divides between them and their predecessors who belong to the same civilization, and between them and others who belong to other cultures, as well as its role in heir interaction with the literature of other societies.**

**اللغة والثقافة**

ما المفقود أو المغيب في التكوين الثقافي لجيل الشباب المعاصر في أمتنا العربية؟ ما حقيقة عزوف أبناء لغتنا العربية عنها؟ وما أهمية الذاكرة الأدبية في إعادة تكوين الشخصية العربية المعاصرة؟

وهل تجسد علاقة اللغة العربية بأبنائها اليوم حال الثقافة في مجتمعاتنا العربية؟ وما الشكل الذي وصلت إليه هذه العلاقة بين جيلنا وجيل أبنائنا؟

تكثر المُداولات حول التحديات المُعاصرة التي تُواجه لُغتنا العربية، وتتصدى الأقلام للنظر في أمر استهدافها وكيفية النجاة بها من هَول ما آلت إليه في ميادين الفكر والعلم؛ حيث يبدو حقيقة أن لُغتنا الأُم تُعاني مُعاناة شديدة في بيئتها من انشغال أبنائها عنها، وتقصيرهم في حقها، وتناسي واجباتهم نحوها، بل والتفاتهم إلى غيرها! مما جعلها تضطر إلى اللجوء إلى الشكوَى، والرغبة في التعبير من خلال ضرورة التذكير بما لها عليهم، وبمكانتها المُقدسة التي يجب عليهم مراعاتها، والحفاظ عليها.

ولأن اللغة هي الطريق إلى المعرفة، والمعرفة تُقدم لصاحبها القوة المُبتغاة، فللغة مكانة الصدراة في الوُصول بالمجتمع إلى عالم المعرفة الجميل. وإذا أراد شخص أن يتعرف إلى آخرٍ فعليه محاكاته بلغة يفهمها؛ لسان كانت أو إشارة، وكما قال أرسطو: يا هذا كلمني حتى أراك. فباللغة يُقدِّم الإنسان نفسه ويُعرِّف هُويته أيا كانت. وعليه فاللغة وثيقة الصلة بالهُوية والتكوين الثقافي الشخصي.

من أنا ؟ سؤال يشغل الحي في كل زمان ومكان. كيف أنظر إلى نفسي؟ وكيف أُعرف نفسي لمن أمامي؟ من خلال النظرة إلى الأنا تظهر أهمية الجذور في الحياة. فالإنسان دائماً وأبداً يحتاج إلى آخرين معه ينظرون إليه فيعرفوه، ويتعايشون معه، ثم ينتسبون إلى بعضهم البعض، وإن لم يكونوا ذوي قربى حقيقية. وأصعب ما يحدث لإنسان هو أن يجد نفسه مجهولاً، ولايستطيع أن يتذكر ماضيه ليعرف منه حقيقته، وماهيته. بل الأصعب هو تقبله لنظرة من حوله إليه عند إصابته بفقدان الذاكرة، أي حين يستشعر إحساس الألم والمسكنة للحال الذي آل إليه مع عدم تمكنه من الإدلال على ماهيته، وحقيقته لمن أمامه أيا كان. عند ذاك تبرز ضرورة المُعالجة، والاستشفاء من هذه الحالة المرضية بغاية الوصول إلى الحقيقة بأي صورة كانت عليها، والعودة إلى معرفة الذات مع ما يترتب عليها من إحساس بالراحة والاطمئنان.

هذا هو حال أبناء اللغة العربية اليوم، فمع تتابع وقع أحداث القرن العشرين الجسام بدءا بالحرب العالمية الأولَى، وما نتج عنها من انفراط عقد دولة الخلافة الإسلامية التي استمرت بحللها المختلفة على مَدَى ثلاثة عشر قرناً، مُروراً بالحرب العالمية الثانية، فالحرب الباردة، والطفرات غير المسبوقة في حُقول العُلوم والتكنولوجيا، مع التغيرات في حُقول الآداب والفُنون ووسائل الإعلام والاتصال، كان لها جميعاً تأثير مُتعدد الأوجه على أبناء الحضارة العربية الإسلامية. أحد هذه الأوجه تمثل في الاهتزاز الشديد، والإصابة

بفقدان الذاكرة الأدبية، مما أدَّى إلى تلعثم اللسان العربي خلال الثلث الأخير خصوصاً من القرن العشرين! واليوم لازالت الحالة مُستفحلة مع دخولنا في القرن الحادي والعشرين، مما يستدعي الأخذ بالأسباب للوصول إلى أفضل طُرق العلاج، والرأفة بالمريض بمساعدته على استرجاع ذاكرته، والتأكد من هُويته، وذاته عن طريق البحث في جذوره التي تساعده على استرداد ثقته بنفسه فيطمئن، ويتقدم في خطاه بثبات.

**مفهوم الذاكرة الأدبية**

ما المقصود بالذاكرة الأدبية؟ نستعين على تعريفها بما جاء في تعريف كلمة "أدب" في لساننا العربي: فهو رياضة النفس بالتعليم والتهذيب على ما ينبغي، و**الأدب هو كل ما أنتجه العقل الإنساني من ضُروب المعرفة**، وهو كذلك الجميل من النظم والنثر. وعلم الأدب هو علم يُحترز به عن الخلل في كلام العرب لفظاً وكتابة، وهو كذلك الظُّرف والتهذيب.

وفي تعريف العلامة ابن خلدون في مُقدمته: الأدب هو "العلم الذي يجمع كلام العرب، وما عساه تحصل به الكلمة من شعر عالي الطبقة، وسجع مُتساو في الإجادة، ومسائل من اللغة والنحو، وحفظ أخبار العرب، وأشعارهم، وأنسابهم، وأيامهم، ودُولهم، و**الأدب كذلك هو الأخذ من كل علم بطرف**". وهذا تعريف ينطبق على لُغات وآداب غير العرب من الأمم بطبيعة الحال.

وهكذا فالآداب تُطلق على العلوم والمعارف عُموماً، وعلى ما يليق بالشيء، فيقال: "أدب القاضي، وآداب الدارس، والآداب العامة ".

أما تعريف الذاكرة فهي قُدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب السابقة، واستعادتها. وذَكَرَ الشيء أي حَفِظَه، واستحضره، وجرَى على لسانه بعد نسيانه. وعليه فإن المقصود بالذاكرة الأدبية في هذا البحث هو المعنَى الواسع لكلمة أدب التي تشمل جَوانب المعرفة المتعددة، والكشف عن حالها اليوم بين أبناء أُمتنا العربية، ومُقارنتها بما كانت عليه قبل زلازل القرن العشرين المجازية المُتتابعة، وأحداثه الجسام. فاليوم يُعاني أبناء اللغة العربية من ظاهرةٍ خطيرةٍ تمثل وَجهاً من وُجوهِ التحديات المُعاصرة؛ ألا وهي فقدان الذاكرة الأدبية، والتي أَثَّرَت بشكل واضح على اختلال مفهوم الهوية في دائرتهم، وفي مُحيطهم الإنساني.

وبالرغم من صعوبة ما مر بأبناء الحضارة العربية الإسلامية خلال زمن الفتوحات الإسلامية، وتداول الحُكم بين دولة وأخرَى، فقد نجح العرب في العُصور السابقة في مُواجهة التحديات التي مرت بهم نتيجة التوسع والانفتاح والاختلاط البشري الهائل شرقاً وغرباً في العصر الأموي، والعصر العباسي. وكانت النتائجُ إيجابيةً تَحَقَّقَ فيها الكثير من الإبداع اللغوي في المجالات المُختلفة؛ الأدبية، والعلمية، والفنية، وأبرزها ما تحقق في الدولة الأندلسية من ابتداع فن المُوشحات الشعري الغنائي.

فقد امتازت لُغتنا العربية بثباتها ورسوخها عبر أكثر من ألف وخمسمئة عام حيث إنها رُبما تكون اللغة الوحيدة في العالم التي لم يطرأ عليها تغييرات جذرية؛ إذ يستطيع العربي المُتعلم أن يقرأ كُتب التراث والمخطوطات القديمة على ما بها من اختلاف أشكال الخط بِيُسر نسبي. والأمر في اللغات الأوروبية مثلاً مُغاير لذلك حيث طرأ عليها كثيرٌ من التغيير [1]. وفي حين خَصَّ أبو حيان التوحيدي في كتابه "الإمتاع والمؤانسة" العربَ بالثناء عندما تناول بحديثه اللغة العربية وذكر أنه استعرض غيرها من اللغات فلم يجد في أي منها "نُصوع العربية، أي الفرج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده بين حروفها، والمسافة التي بين مخارجها ..."[2] ومع ما يرد في ذاكرتنا الشعرية من الأبيات الشعرية التي أبدعها شاعر النيل حافظ إبراهيم في الاعتزاز باللغة العربية، وتفضلها بأدبها على اللغات الأوروبية قائلاً : [3]

سل ( الفريد ) و ( لامرتين ) هل جريا مع ( الوليد ) أو ( الطائي ) بميدان
وهل هما في سماء الشعر قد بلغا شأن ( النواس ) في صوغ واتقان [4]

إلا أننا نذكر كذلك ما زعمه جالينوس الطبيب اليوناني من تميز اللغة اليونانية وأفضليتها على سائر اللغات، بل وتشبيهه لسائر اللغات بنباح الكلب أو نقيق الضفادع! ولنا أن نستشهد بعد عرض هذه الآراء بقول الفقيه والأديب الأندلسي ابن حزم في رده على مثل هذه الأقاويل في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام " قائلاً: "وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات، وهذا لا معنى له، لأن وجوه الفضل معروفة وإنما هي بعمل واختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نص في تفضيل لغة، قال تعالى:" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" (سورة إبراهيم آية 4). لذلك يرفض اللسانيون المفاضلة بين اللغات، ويفسرون تفضيل لغة على أخرى نتيجة الاعتياد على سماع أصواتها، وألفة تراكيبها، وفهم تعبيراتها.

**الإسلام والعروبة والهوية**

ظل الإسلام والعروبة متلازمين بالنسبة للعرب، وبقيا أساس الهوية العربية، وكان ذلك إثر تطور حضاري شامل، وإثر صراع بين المبادئ الإسلامية وبين المفاهيم القبلية في الحياة العامة- مما أدى إلى تجاوز مفاهيم النسب والأصل وإلى اتخاذ العروبة مفهوماً يستند إلى اللغة والثقافة.. وبرز مفهوم الأمة العربية على أساس ثقافي.. وتأكدت اللغة العربية كرابطة أساسية للعرب. وإذا كانت العربية قاعدة الانتماء فإن الثقافة العربية الإسلامية وتراثها تمثل مُحتوَى هذا الانتماء.[5] واستمرت هذه العلاقة مع تميزها بالانسجام والتكامل والترابط على مَدَى ثلاثة عشر قرناً من تاريخ الأمة العربية إلى أن ظهر خلل في استيعاب هذه العلاقة في فترة ما بين الحربين العالميتين في القرن العشرين، ووقوع العديد من دولنا العربية تحت نير الاستعمار الأوروبي.

إن ما حدث في تلك الفترة وثيق الصلة بالاحتكاك الحضاري الذي جَرَى مع الغرب، فتحدي الحضارة الغربية وَلَّد كما هو الحال في تحدي الحضارة الغازية الغالبة، نوعين من ردود الفعل والاستجابة. فأما رد الفعل الأول فتمثل في الانغماسيين، الذين وإن قاوموا الاحتلال الغربي، إلا أنهم اعتقدوا بأن تقدمهم مرهون باستعارة الفكر الغربي، فكان أن عمدوا إلى التغريب، وتجدر الإشارة هنا إلى مقولة ابن خلدون الشهيرة في مقدمته بأن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده [6]. وأما رد الفعل الآخر فتمثل في تيار الانكماشيين الذين قاوموا الاحتلال الغربي، واعتقدوا أن نجاتهم تكمن في التقوقع على أنفسهم، والفرار إلى ماضيهم، فكان أن عمدوا إلى التزمت. وأما الاستجابة فتمثلت في تيار بناة النهضة الذين قرنوا الأصالة بالمعاصرة وعمدوا إلى بناء حضارة أمتهم. [7]

وكان من انعكاسات ذلك على الحياة الثقافية أن اختلفت تلك النظرة الخاصة بمكانة لُغتنا العربية وقدسيتها وجمالها وسلاستها كثيراً في عصرنا الحديث. كذلك خَفَّت الأُلفة كثيراً بين فصاحة اللغة العربية، ولسان أبنائها حتى وصلنا إلى درجة الاغتراب مع عدم القُدرة على استيعاب علمها، وفُنونها. فكما حدث تطور سريع في مناحي الحياة البشرية خلال المئة عام الأخيرة، ونتج عنه اختلاف طبيعة المعيشة اليومية بين جيل أجدادنا وأبائنا وجيلنا، واستخدامهم، واستخدامنا للتقنيات المُتعددة من حولنا، كذلك حدث تباين ظاهر في ثقافة هذه الأجيال الثلاثة، واتجاهاتهم المعرفية. واختلفت فيما بينهم مصادر التعلم والتعليم. وهذا يستدعي إمعان النظر في المناهج الدراسية وتطورها خاصة عبر العقود السبعة الماضية في أنحاء الوطن العربي، والبحث في أسباب الجفاء بين أبناء اللغة العربية، ومكتبتهم الأدبية الغنية، والشيقة.

**عودة إلى الماضي ولكن!**

الوعي التاريخي الحديث للماضي، والعودة إلى دراسته بتعمق، والتعرف إلى العناصر الإيجابية والسلبية فيه ضروري لجيلنا المعاصر في فهم حاضره، وصناعة مستقبله. فالروائي والشاعر والقاص يحتاج إلى الإلمام بتاريخ الفترة الزمنية التي يتناولها وتدور الأحداث فيها، خاصة إذا أبدع رواية تاريخية، أو فيلما تاريخياً، فلا بد له من أن يفهم الحالة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والحالة النفسية للشخصيات التي ساهمت في تلك الأحداث. كذلك يحتاج الأبناء إلى الإلمام بسيرة الآباء والأجداد، والاهتمام بالجُذور لمُتابعة السير في طريق الحياة المُعاصرة. وقد عايشنا ورأينا تميز الروائي الأمريكي أليكس هيلي [8] في روايته الأدبية "الجُذُور" وما فعلته في النفس البشرية وفي التأريخ الفني.

فالنظرة التاريخية التحليلية تساعد في استيعاب الحدث وإن كان صعباً، وتمهد السبيل لمقاربة الحلول الواقعية. فعندما نستوعب أثر ما ترتب علينا بعد مرحلة الاحتلال العسكري الأوروبي المتتابع للأقطار والأقاليم

العربية والإسلامية من عام 1875م تقريباً إلى عام 1925م، وما نتج عن فترة السيطرة المباشرة الإنجليزية والفرنسية والإيطالية لبلادنا، ثم صعوبة مرحلة مقاومة الحركات الوطنية للاستعمار الغربي التي استمرت منذ عام 1925م إلى نحو عام 1975م لاسترداد الإرادة الوطنية. إلى ما تلاها من مرحلة فرض الهيمنة على إرادة الجماعات من خارجها تحت ضغوط الاقتصاد، وسيطرة الثقافة، والإعلام، والتهديد العسكري. أي أننا في المئة سنة الأخيرة من أول عام 1900م إلى نهاية عام 1999م " إذا جاز استخدام الاستعارة والمجاز المُعاصر للتعبير عن هذه المرحلة فنقول أننا بدأنا القرن بالاستعمار الميكانيكي، وأنهيناه بالاستعمار الإلكتروني بالتحكم عن بعد وبغير ملامسة، وبينهما انتصارات وطنية ونُهوض، وعلى مداه كله مُقاومة لاتخبو ". [9]

قَدَّم عُلماؤنا الأوائل في حضارتنا العربية الإسلامية تصنيفاً لما يصل بالدارس إلى آفاق المعرفة الواسعة، وقد أولوا عناية خاصة لتحديد العُلوم الأساسية التي ينبغي تعليمها للأبناء. وقد عمدوا ابتداء إلى البحث في ماهية العلم والهدف منه حتى أنهم أُولعوا بتصنيف العُلوم وفقاً لمختلف المعايير، ووضعوها في مراتب. كما بحثوا في ماهية التعليم وكيفيته وآدابه، وأفاضوا في الحديث عن ذلك كله. مثل كتاب "جامع بيان العلم وفضله" للإمام النمري القرطبي، و"كتاب العلم" الذي استهل به الإمام الغزالي كتابه الجامع "إحياء علوم الدين"، وفصل "أصناف العُلوم الواقعة في العمران" من مقدمة ابن خلدون، ورسالة "مراتب العُلوم" للإمام ابن حزم، وما كتبه رفاعة الطهطاوي عن تعليم البنين والبنات، وصولاً إلى ما كتبه ساطع الحصري في موضوع التربية والتعليم.

ونستحضر من بينها تصنيف الإمام ابن حزم الأندلسي للعُلوم في رسالته "مراتب العُلوم": والذي يُورد فيه أن العُلوم تنقسم أقساماً سبعة عند كلِّ أمةٍ في كلِّ زمانٍ وفي كل مكان، وهي **علم شريعة كل أُمة**، فلا بُد لكل أُمةٍ من مُعتقدٍ ما، إما إثبات وإما إبطال، و**علم أخبارها**، و**علم لُغتها**، فالأُمم تتميزُ في هذه العُلومِ الثلاثة، والعُلوم الأربعة الباقية تتفق فيها الأمم كلها، وهي علم النجوم، وعلم العدد، والطب وهو مُعاناة الأجسام، وعلم الفلسفة وهو معرفة الأشياء على ما هي عليه من حُدودها من أعلى الأجناس إلى الأشخاص. كما يُورد ابن حزم أقسام كلِّ علمٍ من هذه العُلوم فلا يبقى علمٌ خارج التصنيف.[10]

لقد قامت الولايات المتحدة الأمريكية بعرض تصنيف مُشابه في الفكرة قبل عقدين ونيف من الزمان مع ظهور تقريرها "أُمَّة مُعرضة للخطر" عام 1983م الذي حدد فيه مجموعة من الخبراء الأمريكيين العلوم الأساسية التي ينبغي تعليمها بخمسة علوم هي: اللغة، والرياضيات، والعلوم، والاجتماعيات، والكمبيوتر. ووصلوا بعد الدراسة الحثيثة إلى أن هذه المواد تساعدهم في مواجهة الأخطار داخلياً وخارجياً، ويساعدهم تعليمها لأبنائهم في الإسراع بعملية الإصلاح، ومعالجة المشاكل الموجودة في مُجتمعهم.

إلا أن تصنيف ابن حزم يتماشَى مع حاجة أبناء اللغة العربية اليوم لتحسين وتطوير نظرتهم إلى ثقافتهم الواسعة، والاهتمام المُباشر بمُعالجة عُجمة لِسانهم. كما يُمكننا من خلاله الإسهام في إضاءة المصادر المعرفية والجمالية، للعودة بشبابنا وطلابنا إلى روافد الثقافة العربية الإسلامية.

**كيف السبيل؟**

تبدأ الخُطوة الأولى بإعادة النظر في مُحتوَى التعليم المُقدم في بلادنا للأطفال، والشباب في جميع المراحل الدراسية، ولا تخفى أهمية التعليم على أحد، كما نعلم جميعاً فالأمم الناهضة لا تنال نصيبها من الرقي، والتقدم، والرفاه إلا بالعلم. فاختيار المناهج المُضيئة التي تشد عماد الشخصية العربية في مراحل نُموها المُختلفة يقع على عاتق أصحاب الفكر التنويري الإبداعي. والسؤال الأبرز هنا هو: كيف نُعرِّفُ أنفسنا لأبنائنا فيما يتعلمونه؟ آخذين بالاعتبار نتائج دراسات اليونسكو حول التجارب العالمية في تطوير التعليم التي أظهرت أهمية التوفيق بين الأصالة والمعاصرة في مُحتوَى التعليم، وضرورة الحرص على إبراز الهُوية الثقافية، وتحقيق مفهوم التواؤم مع البيئة. لاسيما وأننا قد وصلنا في تخوفاتنا إلى الدرجة التي وصل إليها المُناضل والحكيم الإفريقي جوليوس نيريري الذي تَحَسَّبَ في كتابه "التربية من أجل التحرر في إفريقيا" من أن يُحَوِّلَ التعليمُ الذي يتلقاه الأفارقة الإنسانَ الإفريقي إلى أوروبي أسود أو أمريكي أسود لأنه وضع نصب عينيه فقط مُجاراة الإنجاز المادي لأوروبا وأمريكا. [11]

عند استحضارنا لما أثَّرَ في العقل العربي في كل من جيل أجدادنا وجيل آبائنا وجيلنا، نجد الفرق كبيراً في مُستوَى الكتابات، وفي أسماء الكتب، ونوعيتها. مما يجعلها ظاهرة اجتماعية بحاجة إلى إيضاح وتفسير. فأستشهد بما قرأته لأحد المفكرين في استذكاره للكتب والكتابات التي استقر التعلم بها سنوات في مرحلته ( جيل آبائنا)، وتأثره بالمُعلمين أصحاب الأساليب الجذابة في تقديمهم للمواد الدراسية، ضارباً المثل بكتاب التاريخ في مرحلة الثانوية العامة إذ كان في الخامسة عشرة من عمره، وكيف كان يسعد بالوقت المخصص لذاك الدرس، وتشبيهه له بنزهة استمتاع. وكتاب "المُنتخب من الأدب العربي" الذي كان يُوزع على طُلاب المدارس ضمن مُقررات اللغة العربية في المرحلة الثانوية، وقد قام بجمع مادته، وشرحها كل من الأدباء والمفكرين الكبار؛ طه حسين، وأحمد السكندري، وأحمد أمين، وعلي الجارم، وعبد العزيز البشري، وأحمد ضيف رحمهم الله، فللمرء أن يتصور روعة المادة المُختارة على يد أدباء من أعلَى طبقة مثل تلك الأسماء، وكم كان لذوقهم الأدبي الرفيع، ولحسهم الجمالي تأثير كبير، أصقل ملكات طلبة المدارس الثانوية في سني تفتحهم الأولى، وفي مرحلة التشكل العقلي، والوجداني، وساعد لسنوات طوال في تزايد إقبال الشباب على الاستمتاع بالأدب العربي نثراً وشعراً، وفي إنضاج الذوق العام، وتثقيف الحس الفني. [12]

أما فيما أستذكره عن جيلي وما درسناه في مناهج التاريخ، والأدب العربي خلال السبعينات والثمانينات من القرن الماضي، فأرى أن المادة التي قُدمت إلينا لم تشدنا بدرجة كافية للاستمتاع بالكتب الدراسية، بل كان الحفظ هو الغاية من أجل النجاح فقط. وكانت المُختارات النثرية، والشعرية المُقدمة كافية لتُقنع من يدرسها بصعوبة لُغتنا العربية، وتعقيدها للأسف الشديد. ونتج عن ذلك إبتعاد الطلبة عن ذاك التخصص في مرحلة الجامعة، بل والأصعب إبتعادهم كلياً عن هواية القراءة العامة. وأصبحت هواية القراءة خارج المناهج الدراسية بعيدة عن نسبة كبيرة من الشباب وكأنها ظاهرة اختفت عن الأنظار، والأسماع. وأضرب مثلاً بكلية الآداب في جامعة عين شمس التي تسعَى إدارتها لتشجيع إقبال المزيد من أعداد الطلاب بتخصيص مبلغاً نقدياً شهرياً لمن يُسجل للدراسة فيها، بعد أن مال عنها الأغلبية إلى تخصصات يُعتَقَد أنها تُهيئ الحُصول على فُرص عمل أفضل. هذا بالإضافة لما أصاب علاقة الطالب بالأستاذ من خلل أطاح بالنظرة المُقدسة التي صَوَّرها أمير الشعراء في بيته الشعري المشهور:

قم للمُعلم وَفِّه التبجيلا — كاد المُعلم أن يكون رسولا

فسرعان ما جاء الرد باختلاف الحال على لسان الشاعر إبراهيم طوقان في رده على شوقي ومُعارضته له مُصوراً مُعاناة المعلم في أبيات منها:

شوقي يقول وما درى بمصيبتي — قم للمعلم وَفِّه التبجيلا
اقعد فديتك هل يكون مبجلا — من كان للنشء الصغار خليلا
ويكاد يقلقني الأمير بقوله — كاد المعلم أن يكون رسولا

بل انعكست الآية تماماً وتدهورت العلاقة حتى أصبحت كما جَسَّدَها المُؤلف المسرحي علي سالم [13] في مسرحيته "مدرسة المشاغبين" التي كان لها انعكاس واسع الانتشار على تصرفات طلبة المدارس الثانوية، وعلى إقبالهم الدراسي ووعيهم الثقافي إلى الدرجة التي جعلت المسؤولين يمنعون عرضها بعد ما لمسوه من تأثير سلبي مباشر على جيل الشباب، خاصة في مصر.

**الواقع الحالي وما عليه**

لاشك أن ما تعرَّض له العالم العربي في القرن العشرين من ثورات واختلاف أنظمة حكم على الصعيد السياسي، ومن تطورات علمية، وسرعة تداول الاختراعات التكنولوجية على الصعيدين الاجتماعي والمعيشي قد تركت آثارها على الشعوب العربية. كما كان لها كبير الأثر على الصعيدين الاقتصادي والثقافي، وخلق فجوة ضخمة بين التراث القريب والواقع المعاصر. فالعالم العربي على امتداده يضم بين جناحيه الشرقي والغربي ثقافات محلية لكل منها سماتها وتاريخها الحافل ولهجاتها ونُظمها الاجتماعية

المُتنوعة، ولكنها تتفق جميعاً في وحدتها الروحية التي يُؤلف بينها ذلك الإطار العام المُشترك للحضارة العربية الإسلامية، ويجعلها تظهر في كيان واحد ضخم. وتتجسد هذه الوحدة الروحية في لساننا العربي المُبين حيث تبقى اللغة العربية واحدة مع تعدد اللهجات بين الأقطار العربية الإثنين والعشرين، ليفهم المغربي الإماراتي واللبناني، ويتحدث العراقي إلى الموريتاني والمصري. ويتبادل أبناء العالم العربي إنتاجهم الثقافي، وتتسع دائرة الحوار فيما بينهم لتخلق مزيداً من أجواء الإبداع.

كان فن الموسيقَى من بين ألوان الثقافة وفنون الأدب التي واجهت التحديات المُعاصرة، وظهر عليه التأثير السلبي إلى حد كبير خاصة على لساننا العربي المبين! حيث لمس الجميع الفرق في نوعية ما يتذوقه الجيل المعاصر في السماع، وما اعتاد على تذوقه الجيل السابق، وما اعتاد الجيل السابق أن يردده، وما نردده في عصرنا الراهن مع وسائل إعلامنا وقنواتنا الفضائية التي تخصص لنشر هذا النوع من الفن وتُبذل الأموال في محاولات مُستمرة للعمل على استساغتنا وتقبلنا له. وقد جاء في دراسة لخبيرة في علم وفن الموسيقى تفسير لمفهوم "الموسيقَى العربية" الذي "يُطلق على التقاليد الموسيقية المُتوارثة عبر القرون في هذه المنطقة العربية، وعلى الفن الموسيقي الراقي (وليس التلقائي الشعبي) الذي يُمارسه فنانو الموسيقَى ومُحترفوها في العالم العربي، والانتباه إلى أن صفة العُروبة لا تلغي ما يضمه هذا التراث من عناصر موسيقية فارسية، وتركية لها دورها في تشكيله لتنصهر هذه العناصر الثلاثة فيما يُسمَّى بموسيقَى الحضارة الإسلامية في جانبها العربي الشرقي" [14]. وقد صمد التراث الموسيقي على مر الزمن يتوارثه جيل بعد جيل حتى مستهل القرن العشرين يُؤخذ بالسماع والذاكرة عن شيوخ الفن. واعتمد تعليم هذا الفن في المقام الأول على أريحية المُعلم، ورغبته في الإفادة، ثم على براعة الدارس، وقُدرته على التقليد، والحفظ فالابتكار في نفس ذلك الإطار الموسيقي التقليدي المُستقر.

ففي حين فرضت معضلة الأصالة والمُعاصرة نفسها على الحياة الثقافية كلها إلا أنها تبدو أكثر حدة في المُوسيقى. وبرغم شدة المُؤثرات الخارجية الغربية خاصة على المُوسيقَى العربية في النصف الأول من القرن العشرين، إلا أن النصف الثاني منه واجه اجتياحا حقيقيا قلب معايير الفكر المُوسيقي، وأطاح بنقاء وأصالة التراث الموسيقي العربي إلى حد كبير. إلى أن تنبه بعض أبناء الأمة الواعين خلال مرحلة حركات التحرر من الاستعمار إلى أهمية الاعتداد بالهوية واستردادها، فظهرت حركة الاهتمام بالمأثورات الشعبية واعتبارها حلقة تواصل بين الأجيال، وسجل معبر ومُتجدد لإبداع الإنسان، وثقافته، وخبراته الفنية، مع إبرازها لقيمه وعاداته، ولتفاعله مع ما يحيط به.

وقد كان لمكانة اللغة العربية بين أبنائها في أوائل القرن العشرين دور أساسي في الحفاظ على المستوَى الفني الراقي للموسيقى العربية، حيث نشأ أغلب المطربين والملحنين آنذاك في كنف التراتيل القرآنية

والتواشيح الدينية والابتهالات التي ظلت المنبع الأصيل الذي حفظ للموسيقى العربية هويتها ومقاماتها. فمن هذا الأساس التقليدي الراسخ ينطلقون بعد أن يتمرسوا بقوام صنعتهم. ثم يجتهد كل منهم ليبتكر بعد ذلك على نفس النسق التقليدي، بعد أن يدخل عليه ما تواتيه به موهبته، وفنه من الابتكار اللحني. أما اليوم فيميل الشباب إلى نماذج أغاني "الفيديو كليب" وأغاني "الفرانكو آراب" والأغاني الشبابية المصاحبة لموسيقى البوب والروك والجاز، وكأنهم من مواليد ليفربول موطن فرقة "البيتلز" أو نشأوا في إحدى الولايات الأمريكية. مما يثير تساؤلا حول الحاجات النفسية والاجتماعية التي تلبيها الأغاني الهابطة المنتشرة اليوم، والتي حققت نجاحات تُذكر بين جماهير العرب هنا وهناك، وحققت لأصحابها شهرة واسعة وكسب مالي كبير مع أن منهم أُميون لا يقرأون ولا يكتبون! [15]

**خلاصة**

إن تبلور سياسة حكيمة شاملة لشؤون الثقافة العربية والفنون سيساعد شعوبنا العربية على نسج خيوط تواصلها بلغتنا العربية ولهجاتنا الموسيقية النابعة من أقطار أمتنا هنا وهناك لتؤتي ثمارها في كيانات لها هويتها المُتميزة المُسايرة للعصر مع المُحافظة على روح الأصالة. وعلينا ببدء أساليب التوعية من مرحلة الطفولة لتستمر خلال مراحل التعليم المُتتابعة، وتنتشر بين مجالات التثقيف ودوائر الإعلام المختلفة. وأضرب مثالاً استوقفني عند سؤالي لأحد طلابي الكوريين في صف اللغة العربية للناطقين بغيرها عن سر تفوق أبناء قومه وتميزهم العلمي الواضح الذي لمسته خلال فصول دراسية عدة على أقرانهم من الجنسيات الأخرى في استقبال لغة جديدة كليا عليهم مثل لغتنا العربية وتفاعلهم معها بالشكل الصحيح، فأجابني أن سرهم نابع من دراستهم للموسيقى صغاراً! فالموسيقى تساعد على التفكير والتركيز العقلي إلى جانب ما تشعه من الهدوء النفسي والروحي.

لذلك فمن باب حرصنا على لُغتنا العربية، ومُساعدة أنفسنا في مُواجهة التحديات الكبيرة المُعاصرة علينا إعادة النظر في كيفية تقديمنا للعلومِ التي أُتفق عالمياً على أهميتها في بناء شخصية الفرد بأبعادها الروحية، والخُلُقية، والعقلية، والتي أعتقد أنها العنصر الأساسي المُتواري إلى حد ليس بالقليل عن النشء بين جيلي وجيل أبنائي. وهي **علم الشريعة** و**علم اللغة** و**علم الأخبار**، فهي العلوم الأساسية التي ينبغي تعليمها للناشئة لتساعدهم على بلورة الانتماء، وتحديد الهوية بأركانها الثلاثة: العقيدة واللسان والتاريخ. لاسيما أن الأُمم جميعها تتميز في هذه العلوم الإنسانية الثلاثة التي تُجيب عن سؤال الماهية مع تعلم الفرد لسان قومه وعقيدتهم وتاريخهم. أما العلوم الأربعة الأخرَى وهي الرياضيات، والعلوم، والمهارات، والفلسفة فتنبع أهميتها من إسهامها في بناء البُعد العقلي، والبُعد الفني، والبُعد الجسمي في شخصية الفرد، وتتفق فيها جميع الأُمم

من حيث كونها العُلوم البحتة التي تجيب عن سؤال الكيف. ولا يخفَى ما للعلوم الإنسانية من أهمية في صناعة الجيل وفقاً لمفاهيم أُممية مُترابطة، وهو الذي يُميز أُمة عن أُمة، وجيلاً عن جيل. ومن الجدير بالذكر أن القول بأهمية هذه العلوم في تميز الأجيال لا يعني تكرار النمط بين جيل وآخر، وإنما هو التجدد ضمن الإطار العام، وهو ما قاله الإمام علي رضي الله عنه:"ربو أولادَكم لزمانِهم فإنهم خُلِقوا لزمان غير زمانكم".

## خاتمة

من خلال عرض ما يتعلمه أبناء هذه اللغة في مراحل دراستهم المتتابعة، وما يُقبلون عليه في الإطار الثقافي الواسع، ومن خلال البحث في محور اللغة العربية وأبنائها تمر الدراسة بمحاور اللغة العربية وتحديات العولمة، وكذلك اللغة العربية وتحديات التغريب، وتناقش محور اللغة العربية وتحديات العاميات لما لهذه المحاور الثلاثة من تأثير مباشر في موضوع ذاكرة الجيل المعاصر من أبناء اللغة العربية الأدبية.

## الهوامش

[1] وفي هذا قال د. إحسان دوغرامجي وهو من أعلام التعليم العالي في تركيا ومؤسس لأكثر من جامعة، وممن يتقنون العربية كأبنائها، وهو منهم حيث ولد في أربيل عام 1915م، قال أنه لا يستطيع قراءة كتباً باللغة التركية صدرت قبل ثلاثين أو أربعين عاماً، لما جرى على هذه اللغة من تغيير، بينما يستطيع قراءة الكتب العربية القديمة من مئات السنين بوضوح وسهولة في يومنا هذا.

[2] موسوعة تراث الإنسانية، د. زكي نجيب محمود، الجزء الأول، كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، ص 795

[3] المصدر نفسه، الجزء الخامس، عيسى محمود ناصر، ديوان حافظ إبراهيم، ص 323 .

[4] الفريدوي موسيه من كبار شعراء فرنسا وهو صاحب الليالي الأربع التي رفعته إلى الطبقة الأولى من شعراء فرنسا، ولامرتين هو الشاعر الفرنسي ويعرف بشاعر الحب والجمال، والنواسي هو أبو نواس المعروف، والوليد هو البحتري الشاعر المعروف، والطائي هو أبو تمام. المصدر نفسه ، ص323.

[5] د. أحمد صدقي الدجاني، وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية في عالم مترابط، دار المستقبل، القاهرة، 1990م، ص 65.

[6] مقدمة ابن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الفصل الثالث والعشرون، ص 147.

[7] المصدر نفسه، ص66.

[8] أليكس هيلي، روائي أمريكي من أصل افريقي (1921-1992م) اشتهر بروايته "الجذور" التي طبعت عام 1976م.

[9] طارق البشري، من حمل مصر والعرب في القرن العشرين، مجلة وجهات نظر، العدد 12، يناير 2000م، القاهرة، ص 24، 25.

[10] د. أحمد صدقي الدجاني، وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية في عالم مترابط، دار المستقبل العربي، القاهرة، 1990م، ص 138.

[11] جوليوس نيريري ( 1922-1999م) رئيس تنزانيا الأسبق وأحد مؤسسي منظمة الوحدة الإفريقية، المصدر نفسه، ص 137.

[12] طارق البشري، أهم الكتب والأفكار التي أثرت في العقل العربي، وجهات نظر، العدد 12، يناير 2000م، ص 24.

[13] علي سالم مؤلف مسرحي مصري من مواليد عام 1936م، تم عرض مسرحيته الشهيرة مدرسة المشاغبين على خشبة المسرح في بداية السبعينات واستمرت لسنوات طويلة.

[14] سمحة الخولي، الموسيقى العربية في مواجهة العصر، وجهات نظر، العدد 30، يوليه 2001م، ص 60.

[15] المصدر نفسه.

## المراجع

– د. أحمد صدقي الدجاني، وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية في عالم مترابط، دار المستقبل، القاهرة، 1990.

– د. زكي نجيب محمود، كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، موسوعة تراث الإنسانية، الجزء الأول، القاهرة.

- سمحة الخولي، "لموسيقى في مواجهة العصر" **مجلة وجهات نظر**، العدد 30، يوليه 2001م، القاهرة.
- طارق البشري، "ن حمل مصر والعرب في القرن العشرين" **مجلة وجهات نظر**، العدد 12، يناير، 2000م، القاهرة.
- عيسى محمود ناصر، ديوان حافظ إبراهيم، موسوعة تراث الإنسانية، الجزء الخامس، القاهرة.
- د. محمد عابد الجابري، وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1992م.